ذاكرة شجرة

ثمة صباحات أعبر فيها إلى الجهة الأخرى من النافذة وأدخل عميقا في غيابهم.. لن تنقذني أبجديتي من الغرق في ماء نسيانهم،

لربما رسم خريطة لمدينتهم القديمة يفعل!

سرداب عميق،ممرات ضيقة وأخيرا شوارع عريقة كهذه التي كان يقطن فيها أثرياء كربلاء. أذكر أنهم من فرط الغياب، أثروا بداخلي فوضى الميتات المبكرة للذكرى.. أعدهم بأن الفنجان سيظل محتفظا بالبقايا وشجرة السرو ستلتحف بأوراقها.. أما أنا سأكتب..أكتب فحسب..

لم أعد أهتم بعقارب الساعة إلى، أي توقيت تشير،فكل التوقيتات أصبحت متشابهة حد الاختناق،عدا الساعة الخامسة التي أذهب فيها إلى حيث شجرة السرو،أجلس تحت ظلها على العشب الرطب استمع إلى تنهيدة الأرض المتسربة من جذعها.. تساقط بقايا الأعشاش على رأسي يلمس أفكاري النائمة فيوقظها..

عودة للعام الماضي..

حيث جدتي كانت تجلس هنا وتحدث الشجرة عن الغصن العاصي الذي تمرد عليها وتركها ليشق طريقه وحده وما كان له سوى الجفاف كيف يتمرد على من يمنحه لقب الغصن الأخضر والذي استبدله ب الغصن اليابس بعد فراقه لها..

لم أفهم تمامًا ما قصد جدتي هل حقا كان غصنا حقيقيا، لم تخبرني ولم تخبر أحد فقط كانت تودع كل أسرارها هنا في قلب الشجرة،هذا الطين يحمل الكثير من بقايا لمسات جدتي ورائحة فأس جدي،أرجوحة أخي ودموع أمي، حتى ملابسنا المبللة أخذت نصيبها من هذه الشجرة..

في هذا العام تبدل كل شيء.. هذه صفقة (كلمة سمعتها من أبي) بينما أمي كانت تبكي وجدتي تنظر لصورة جدي بوجع، وهي صامتة حاولت جاهدة أن أعرف ما الذي يدور في رأس كل فرد منهم، ولكن دون جدوى أتيت إلى هنا حيث الشجرة التي أقمت بجانبها صلواتي وأشعلت على أغصانها شمعة أحرقت نصف أوراقها في لحظات..هنا خرج الجميع ركضا من البيت..

أيتها المجنونة هل أنتِ، بلا عقل كيف تفعلين ذلك انزلي من فوق الغصن،الأوراق تحترق..الجميع يصرخ بصوت عال بينما أنا لا أشعر بشيء سوى الدفيء، صورة الأمس أمامي..أخي يلعب بالأرجوحة، جدتي تطعم العصافير، أمي تقوم بوضع الملابس أمام خيوط الشمس لتجف قبل المغيب..لا أرى أبي، ولكن حتى جدي الراحل رأيته ممسكا بالفأس ويحاول قطع الشجرة،ينظر لي، وهو يصرخ انزلي لقد زرعت لك أشجار الزيتون، وأيضًا قمت بزراعة شجرتي صنوبر كما طلبتي وكثيرًا من الزهور، بل وأحضرت لك زهرة اللوز..انزلي أرجوك.. وهنا قررت أن افتح عيني، ولكن لم أر جدي كان أبي يحاول

إطفـاء الأغصــان بالمــاء والجميــع يفعـل مثلــه،لم أشــعر بالحريق الذي تسببت فيه، أو ربما لم أكن أنـا الفاعلـة،كنت أنتظـر أن تخبرنــي الشـجرة بأسـرارها، ولكنهـا لـم تفعـل.. حروق طفيفة، وارتعاشة في أحضان أمـي مـن خلفـي أبـي يضع على أكتافي شال جدتي الأخضر. وبصوت قلـق لمـا: فعلتي كل هذا؟

-اسأل الشجرة!!

كان جاري هو الذي يمسك بيدي و زوجته تقوم بوضـع الثلج على وجهي.. كنت أعلم أن الجميع مـاتوا وتركـوا لـي شجرة وبيت فارغ منهم ومليء بذكراهم..